الخلفيات الاجتماعية والثقافية لنخب التيارات السياسية في الجزائر

أ/ عمر أوذاينية
كلية الآداب والعلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر –بسكرة

الملخّــص:

مسألة مسؤولية النخب الحاكمة في بلدان العالم الثالث, وطبيعة ممارستها للسلطة, وآليات اشتغال مؤسساتها, ونمط علاقاتها وتفاعلاتها من النخب الحاكمة فيها مع نخب المعارضة, ومع الجماهير من المسائل الشائكة التي تحتاج إلى تسليط الأضواء لكشف مضامين هذه الممارسات والأدوار في ظل معطيات داخلية وخارجية شديدة التعقيد والحساسية, فالتداول على السلطة من خلال التنافس السياسي لكسب أصوات الناخبين تحتل جوهر العملية الديمقراطية.

التجربة الجزائرية بكل أبعادها وخلفياتها الاجتماعية والثقافية والسياسية تجربة غنية لثورة شعبية, وتجارب تنموية ومحاولة لإقامة ديمقراطية على أسس متينة من شأنها اختصار الطريق نحو مستقبل أكيد لبناء الذات الوطنية المحصنة ضد كل اختراق خارجي.

Résumé:

La question de la responsabilité de l'élite au pouvoir dans le tiers monde et la nature de la pratique du pouvoir, et les mécanismes du fonctionnement des institutions et les rapports interdépendants entre le pouvoir et l'opposition d'une part, et avec la population d'autre part représente un des problèmes épineux qui mérite d'être analysé d'une manière a mettre en évidence les pratiques réelles et les rôles joués dans des conditions spécifiques a chaque pays du tiers monde et dans un contexte international crucial .

L'alternance du pouvoir entre des conquérants politiques par la voix du suffrage universel transparent représentent l'esprit même de la démocratie.

L'expérience Algérienne dans toutes ses dimensions socio culturel. Politiques en tant que révolution populaire qui a tenté des expériences du développement, essaie de crée des bases sociales pour un avenir certains sereins et confiant.

مقدمة

يعود بناء نخبة السلطة في النظام الاجتماعي الجزائري إلى انتقال الحركة الوطنية الجزائرية في بداية القرن العشرين إلى المقاومة السياسية بعد أن خبرت المقاومات العسكرية منذ 1830 حيث تشكلت مختلف الحركات السياسية للتعبير عن طموحاتها وتطلعاتها في ظل ظروف وأوضاع ودرجة وعي متأتية من الأطر الاجتماعية التي تشكلت فيها وترعرعت في خضمها لمواجهة نظام استعماري استبدادي.

لقد اتسم هذا النضال سواء بالتعبير عن طموحات فئوية أو وطنية أو فكرية ثقافية في إطار الشرعية الاستعمارية وضمن المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية داخل الوطن وخارجه.

وإذا كانت الاتجاهات المتبلورة لدى الفئات البرجوازية الجزائرية التي نشأت وتطورت في ظل اندماج المجتمع الجزائري في المنظومة الرأسمالية التابعة قد تمثلت أساسا في الاتجاه الاندماجي والإصلاحي، فإن الفئات المتنورة الوطنية المتواجدة خارج الوطن قد طالبت بالاستقلال الوطني في إطار المغرب العربي أو في الإطار الوطني، لتتجذر بعد الحرب العالمية الثانية بإنشاء جناح عسكري متمثلا في المنظمة العسكرية السرية، التي تم انتقاء عناصرها على أسس دقيقة، لتتطور مع تطور الظروف والأحداث لإنشاء اللجنة الثورية التي بادرت بعد ظهور بوادر الخلاف بين تيارات الحركة الاستقلالية إلى الإعلان عن الكفاح المسلح بقيادة جبهة التحرير الوطني.

إن سيرورة ولادة جبهة التحرير الوطني هي نهاية لمرحلة النضال السياسي للحركة الوطنية الجزائرية في ظل الشرعية الاستعمارية التي أدت ما عليها، وبداية سيرورة العمل في ظل الشرعية الثورية الرافضة لشرعية الاستعمار، لتؤسس لنواة سلطة وطنية ورثت نضالات الحركات الوطنية مجتمعة، لتصقلها ثورة التحرير في صلب المعركة ضد المستعمر بما أنتجته من آليات للفرز وسيرورات نموها وتطورها في ميدان معركة التحرير، وفي مختلف مراحل التأسيس لاستعادة وتطوير بناء مؤسسات الدولة الجزائرية.

لقد كان تطور النخبة السياسية الحاكمة في ظل معارضتها لمختلف أشكال النظام الاستعماري وقيادتها لبناء مؤسسات الدولة الجزائرية وإقامة أسسها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ,تعبر عن علاقات القوى بين فروع النخب في مختلف مراحل تشكلها ,وتعكس عن مدى تأثيراتها على واقع المجتمع الجزائري بسلبياتها وإيجابياتها بما فعلته هذه النخب وما لم تفعله لأسباب ظاهرة أو خفية.

إن التاريخ الجزائري المعاصر لم يكتسب بعد إلا القليل من المحاولات الجادة التي تسعى إلى إعادة النظر في الكثير من مفاهيمه وأحداثه ووقائعه ووضعها في إطارها الصحيح دون تضخيم أو تحجيم وهو ما يستدعي استقراء تاريخي للأحداث في إطارها العيني الاقتصادي الاجتماعي الثقافي السياسي، الإطار الأمثل لكشف الآليات التي أفرزت التيارات السياسية الوطنية منذ بداية القرن الماضي.

إن دراسة النخبة السياسية الحاكمة في الجزائر لا يمكن فهمه بشكل صحيح إلا بالرجوع إلى الخلفيات التي أفرزت المشروع الاجتماعي الجزائري، الذي هو انعكاس لإيديولوجية النخب وتطوير لتصوراتها وتطلعاتها عبر مراحل التاريخ الحديث والمعاصر وتعبير عن تناقضاتها وصراعاتها، وأحد مبررات وجودها واستمراريتها وتفاعلها مع الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذا من خلال الاحتكام إلى محك الواقع التاريخي التي تتضمن بنياته المواد التي يمكن أن نستكشف من خلالها العلاقات والروابط والمعاملات المفسرة للأحداث والوقائع.

لقد جاء ظهور الحركة الوطنية الجزائرية في شكلها السياسي بتياراتها وتوجهها متأخرا نسبيا، ومعبرا عن التأثيرات والتحولات التي أحدثها الاستعمار بتحطيمه لأسس النظام الاقتصادي الاجتماعي المحلي للسكان الأصليين، وربط المجتمع الجزائري ودمجه في بوتقة الرأسمالية الاستعمارية التابعة التي أفرزت بدورها نخبا تعبر عن اتجاهات وتيارات تواجدت أساسا قبل ثورة التحرير وأثنائها، واستمرت بعد الاستقلال بأشكال متعددة تدعم بعضها بالتعاون الفني في إطار اتفاقيات إيفيان (المادتين الأولى و الثانية من إعلان مبدأ التعاون الاقتصادي والمالي والثقافي).(1)

ظهرت هذه النخب معبرة عن ثلاثة اتجاهات تختلف من حيث أهميتها ودورها بالنسبة للمسألة الوطنية الجزائرية، والتي عرفت تطورات مع الحركة النضالية للمجتمع الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي ذاته وضمن الصراعات والتحالفات بين هذه التيارات وهي :

-نخبة التيار الاندماجي

-نخبة التيار الإصلاحي

-نخبة التيار الاستقلالي.

أولا: التيار الاندماجي: "النخبة الجزائرية للوساطة الاستعمارية "

بدأ الاستعمار بإقامة العديد من الهياكل الوسيطية بينه وبين السكان الجزائريين بإقامة علاقات مع ما يطلق عليهم بالعائلات الكبيرة أو البيوت الكبيرة وهذه الأخيرة لا علاقة لها مع البيوت الكبيرة التقليدية التي تتميز بتأثيراتها الروحية والأخلاقية قبل تأثيراتها الاقتصادية في عالم الريف، كما أن الأوربيين الإقطاعيين الذين أصبحوا يملكون مزارع ضخمة ويحتاجون إلى قوة عمل أجيرة كانوا وسائل هامة في إقامة هذه العلاقات ونسجها مع الجزائريين بمرور الزمن.

أما في المدن، على قلتها، فقد ساعد الاستعمار على بلورة فئة من البرجوازيات الحضرية الصغيرة غير المنتجة والطفيلية العاملة في قطاعات الإدارة والخدمات والمهن الحرة والحرف الحديثة والتقليدية حيث توظف من بين هؤلاء الأهالي أفراد لتشغل بعض المناصب لتشكل منهم فئة من الوسطاء مع الأهالي.

ذلك أن السكان الأهالي يعادون الإدارة ولا يحبذون إقامة علاقات مباشرة مع الإدارة الاستعمارية في الغالب لأنها تمثل أداة قمع بالنسبة إليهم.

من بين هؤلاء الوسطاء من الجزائريين كونوا وضعيات اجتماعية متميزة في إطار التشكيلة الاجتماعية الاستعمارية التي أصبحوا مكونا من مكوناتها حيث ظهر التيار الاندماجي الذي ينادي بالاندماج الكلي أو الاندماج مع الاحتفاظ بالإطار القانوني الإسلامي فيما يتعلق بالأحوال الشخصية لا غير.

فقد انشأ الاستعمار بسبب حاجته إلى الموظفين والتراجمة ثلاثة مدارس في تلمسان وقسنطينة والجزائر ومدرسة عليا بمدينة الجزائر يتلقى فيها 1500 طالبا من المسلمين تعليما عاليا بمدينة الجزائر في اللغتين العربية والفرنسية وبحكم احتكاك هؤلاء بالإدارة الاستعمارية على غرار غيرهم من الجزائريين الذين يتعاملون مباشرة مع المصالح الاستعمارية تكوّن لديهم وعي خاص بوضعيتهم كجزائريين يتوفرون على نفس المقاييس والمواصفات المتوفرة لدى الفرنسيين ولكنهم لا ينالون نفس الحقوق ولا يحصلون على نفس الترقيات في المناصب الإدارية والسياسية في الإدارة الاستعمارية، ومن هنا فإن موقفهم الاندماجي هو مطلب فئوي أكثر منه مطلب وطني نضالي لصالح المجتمع الجزائري بأسره ويمكن التمييز بين فئتين اجتماعيين متميزتين من الجزائريين تشتمل:

الفئة الأولى على شريحة مرتبطة بالسلطات الاستعمارية لما تقوم به من دور الوساطة بين الغالبية المخضعة والأقلية الاستعمارية، من بين هذه الفئة ظهر المنادون بالاندماج في إطار الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية لأن ذلك يسمح لهم بالترقية وتحسين أوضاعهم كشرائح اجتماعية متعددة في المدن والأرياف ضمن المنظومة الاستعمارية.

إن هذه النخبة التي تلقت تعليمها في المعاهد الفرنسية الكبرى شكلت شريحة منها في الإدارة الاستعمارية وهي رغم ما تحظى به من امتيازات وما تملكه من متاع لا ترقى إلى مستوى أحط الأوربيين شأنا وأقلهم ثروة ومن الناحية العددية فإن هذه الفئة قليلة جدا حتى عندما انظم إليها من كانوا يسمون بالنخبة حسب تعبير العربي الزبيري(2) بالنسبة للنخبة المثقفة

الفئة الثانية:الأرستقراطية التقليدية المشكلة من الملاكين الكبار للأراضي وأثرياء المدن الذين يشكلون الناطقين الرسميين للأهالي وهؤلاء يتواجدون أساسا بقسنطينة، الجزائر وتلمسان وبلاد الجنوب والبعض من هذه العائلات ممثلا في انتخابات المجالس البلدية ذلك هو الإطار التقليدي للنخبة المتعاملة والمتعاونة مع الإدارة الاستعمارية.

فالمتعلمون يصطدمون بالحاجز العنصري ولا يستطيعون الانخراط في الجهاز الإداري الاستعماري إلا بصعوبة، والكثير منهم يختار تخصص المهن الحرة كالأطباء

والمحامين والصيادلة والتعليم لمعرفتهم المسبقة بانغلاق أبواب الإدارة الاستعمارية أمامهم.

شكل الأمير خالد كتلة المنتخبين الجزائريين وعبر عن آرائه من خلال "جريدة الإقدام".

إن التيار الاندماجي يتكون من فئة البرجوازية العقارية الكبيرة والبرجوازية التجارية المدينية، ومن أصحاب المهن الحرة ومتقاعدي الجيش والتعليم والإدارة الاستعمارية ومن خريجي بعض الثانويات وجامعة الجزائر، وبعض مؤسسات التعليم بفرنسا ذاتها، وهي متشبعة بقيم المدرسة الفرنسية الداعية إلى الحرية والعدالة والمساواة على المستوى العقائدي، والتي تعاني من التمييز بينها وبين نظرائها من المعمرين في واقع الحياة العملية وهكذا فإن نضالها طبقي مصلحي فئوي يريد الاستفادة في ظل هذه الشرعية الاستعمارية من مزايا النظام القائم، ويغلفون مطالبهم بإلغاء المحاكم العربية وإلغاء الضرائب الخاصة بالجزائريين وفتح مجال المشاركة السياسية أكثر لفائدة هذه الشرائح،

وسيبقى هذا الاتجاه موجودا ضمن الهياكل الإدارية الاستعمارية وضمن الحزب الشيوعي الجزائري وسيضم بعض الجزائريين أثناء ثورة التحرير الذين وقفوا إلى جانب المشروع الاستعماري لقمع الشعب الجزائري وما دفعات "سوستيل" و"لاكوست" إلا تعبيرا عن ذلك وما انتخاب حوالي 16634 من الجزائريين بلا لاستقلال الجزائر إلا تعبيرا على بقاء هذا التيار ليس على مستوى التنظيم السياسي وإنما داخل مختلف هياكل وأجهزة الدولة بما يصطلح عليه شعبيا بـــ"حزب فرنسا" الذي هو مرتبط أشد الارتباط بالنخبة البيروقراطية التي تكونت في أحضان الاستعمار الفرنسي وفي مدارسه وستساهم جزائر ما بعد الاستقلال في الحفاظ على مناصبهم داخل أجهزة ومؤسسات الدولة الجزائرية حديثة الاستقلال (3).

تعتبر النخبة الإدارية الجزائرية من حيث نشأتها وليدة للإدارة الاستعمارية الاستيطانية الفرنسية بالجزائر، فهي نتاج مدرستها الاستعمارية وحصيلة طرق الانتقاء والفرز المطبق من قبل أجهزتها لتولي مناصب الشغل التي وظفت فيها لتكون أداة تنفيذ

للمشروع الاستعماري الفرنسي وهو مشروع قمعي استبدادي بالنسبة للجزائريين وأداة تحكم بيد السلطة الاستعمارية للسيطرة على السكان الجزائريين وهي من حيث التكوين نتاج للمدرسة الفرنسية في ا لجزائر بلغتها الفرنسية وقوانينها وإجراءاتها التنظيمية التحكمية، إنها مندمجة ضمن الإيديولوجية الاستعمارية وامتداد لها في آن واحد.

هذه العناصر من النخبة الإدارية هي التي ستتولى مهمة إدارة الشؤون العامة في المرحلة الانتقالية لنقل السيادة إلى القيادة الثورية في الجزائر سنة 1962، وستكون نواة الإدارة في الدولة الجزائرية وستتولى بأشخاصها وقوانينها تسيير أمور المواطنين من خلال إعادة إنتاج الفعل الاستعماري في اللغة والإدارة من البلدية كهيئة إدارية قاعدية إلى المناصب العليا في الوزارات المتتالية وستتولى إدارة أهم القطاعات من تربية وتعليم وتكوين وهيئات تقنية...الخ باعتبارها "إطارات"، "كفاءات" ذات خبرة ميدانية وستتسرب تدريجيا إلى المناصب العليا في الإدارة الجزائرية وفي إدارات المؤسسات الاقتصادية المؤممة أو تلك التي أنشأتها الدولة الجزائرية للإشراف على إنجاز مخططات التنمية التي تندرج ضمن إستراتيجية النخبة السياسية العسكرية.

إن الاعتماد المتزايد على التعاون التقني " Coopération technique" مع الكثير من بلدان العالم الرأسمالي والشيوعي والعالم الثالث وبعض بلدان العالم العربي في مجالات معينة وبالنظر للحاجة الملحة إلى هذه الخبرات المرتبطة بخيارات تكنولوجية معينة، أي إعطاء البعد الاقتصادي أسبقية وأولية على العمل السياسي مكن هذا الفرع من النخبة الموروثة عن العهد الاستعماري والمدعمة بترسانة من القوانين أن تتحول إلى مساهمة فاعلة في تسيير وإدارة عملية التنمية والشؤون العامة.

إن الطابع الاستعجالي لعمليات التنمية والمشاكل التي تطرحها في مجالات توجيه وتحويل مساراتها رغم أنها وإن كانت قد تبدو مقيدة بقرارات النخبة السياسية العسكرية ومنفذة لتعليماتها ولكن باعتبارها هي الجهاز التقني لصناعة القرارات وتوجيهها والساهرة على تنفيذها وتوفير الشروط المادية اللازمة لتحقيقها في الميدان تصبح أدوات لا مناص منها لتطبيق سياسة النخبة السياسية الحاكمة شكليا، من حيث مصدر السلطة وشرعيتها فقط, أما من حيث تجسيدها الميداني فاتفاقية إيفيان، بين جبهة التحرير الوطني ممثلة في

هيئاتها القيادية الوطنية وبين ممثلي الحكومة الفرنسية قد أعطت الضمانات الكافية للجزائريين العاملين في أجهزة الدولة الفرنسية في الجزائر، بحمايتهم والحفاظ على حقوقهم المكتسبة ودعمهم في مواقعهم من خلال الاتفاقيات الخاصة بالتعاون التقني الممتاز مع فرنسا. (4)

إن العلاقات القائمة والتكوين المتشابه بين عناصر هذه الفئة من النخبة والعمل المكتسب، والنظام الإداري المتبع والظروف الاجتماعية وظروف التعاون التقني المكثف لإخراج البلاد من الخراب الذي تعانيه، إن هذا التكوين باللغة الفرنسية أساسا ومن فرنسا بصفة خاصة سيفتح المجال أمام هذه العناصر أكثر من غيرها في الترقية والتدرج في مناصب المسؤولية ذلك لأن الاعتماد على هؤلاء المسيرين المستخدمين للغة المستعمر كأداة رئيسية للتعامل جعلت من هؤلاء نقطة ارتكاز جوهرية في عملية التنمية ومكنتهم بالتالي من إعادة إنتاج موسع لإطارات جديدة نشأت ضمن إطار ثقافي وقانوني استعماري لم يلغ منه إلا ما كان متعارضا شكليا مع سيادة الدولة الجزائرية، وهو ما يلتقي مع نظرية التحديث كأداة لتعميق التبعية الثقافية والتقنية والاقتصادية في نهاية المطاف.

فالنخبة الإدارية الجزائرية غداة الاستقلال تمت وراثتها عن الجهاز الإداري الاستعماري بما يعني أنهم موظفون في الإدارات والمرافق العمومية متعلمون في الغالب ويقيمون في المناطق الحضرية أين تتوفر لهم ولأبنائهم أفضل الخدمات في التربية والتعليم والصحة، وإمكانيات العمل والترقية وبحكم أن هؤلاء يقيمون في المدن وفي المناطق الحضرية الأكثر تطورا بعد رحيل المعمرين، فإن لهؤلاء منذ الانطلاقة الحظ في الحصول على التعليم أو التكوين، وإمكانية الدخول إلى الجامعة وان أبناءهم لهذا السبب أيضا مؤهلون بسبب الإرث الثقافي والمهني والوضعية الاجتماعية المتميزة للاندماج ضمن هياكل ومؤسسات دولة خرجت لتوها من الحرب أكثر من غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن غالبية السكان من الريفيين بنسبة 75 % في جزائر الاستقلال وان أغلب الأرياف قد تم تدمير قراها وجعل هذه المناطق محرمة، وأن سكان الحدود الغربية والشرقية هاجروا أو هجروا بسبب الحرب. (5)

ثانيا: نخبة التيار الإصلاحي:

تشكل هذا التيار أساسا من البرجوازية الحضرية والريفية والتقليدية التي ظلت مرتبطة بقيمها الثقافية العربية الإسلامية رغم محاولات التشويه والتزييف والقمع الثقافي وبث الفكر الخرافي والقدري في أوساط الشعب من قبل أبواق الاستعمار، وظهر هذا التيار بزعامة علماء الدين لتنقيته من الشوائب التي لحقت به متجهة لمحاربة الجمعيات والأخويات الدينية التي ارتبط بعضها بالاستعمار ووظف لخدمته.

إن تيار النهضة والإصلاح جاء نتيجة التدهور الذي عرفته ليس الجزائر فحسب على يد الاستعمار المباشر ولكن شمل وضعية العالم الإسلامي ككل وتبين التحدي الحضاري الأوربي تحول إلى هيمنة سياسية عسكرية مباشرة، وأن لا جواب إلا من خلال النضال السياسي والتحزب والتنظيم العسكري فكان بروز الحركات الوطنية في تركيا، مصر، العراق، وبلاد المغرب، حركات علمية تحررية لكنها مشتتة ويمكن تحديد الفترة منذ 1919 إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية التي طبعت بطابع الحركات الوطنية التحريرية وأعطتها قوتها الدافعة ومضمونها التحرري. (6)

إن البعد الإسلامي مؤسس أساسي للنضال الوطني وحضور للماضي في الحاضر، ارتباط عامل الدين الإسلامي واللغة العربية بمقومات الشخصية الجزائرية وبالتراث الحضاري للأمة الجزائرية يجعل منها وحدة عضوية تحميه من الذوبان في الآخر الاستعماري ذلك هو جوهر الفكرة التي انطلق منها قادة فكرة الجامعة الإسلامية التي مثلها المصلحون المحدثون الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وبن باديس.

تعتبر في هذا الإطار جمعية العلماء المسلمين أحد الأقطاب الرئيسية في بث الوعي الحضاري والثقافي العربي الإسلامي في أوساط السكان الجزائريين، وتمثل الجهود التي قام بها علماء الدين لتنقية الدين من الشوائب التي لحقت به ومحاربة سياسة التجهيل التي اتبعتها السياسة الاستعمارية والتي جعلت من اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية الوحيدة في الجزائر، لذا كان نضال جمعية العلماء المسلمين التي أدركت أهمية الروابط الدينية وقوة الشعور الديني في نفوس الجزائريين فجندت العلماء وأنشأت المدارس والمجلات والنوادي الفكرية والأدبية لإعداد الأجيال للمستقبل، وهي إذ أسست نفسها كجمعية بدل تنظيم

سياسي فالغاية هي تجنيبها الحل من قبل السلطات الاستعمارية وضمان ديمومتها وإن كان ذلك لم يمنع السلطات الاستعمارية التي أدركت خطورة هذه الجمعية من ملاحقة العلماء والزج به في السجون أو فرض الإقامة الجبرية عليهم ومحمد البشير الإبراهيمي الذي كان على رأس جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس، خضع للإقامة الجبرية،مثل الكثير من العلماء الذين استشهدوا قبل أو بعد انضمامهم لثورة التحرير (7).

التركيبة الاجتماعية لنخبة التيار الإصلاحي: يشمل التيار الإسلامي مجموعة من النخب ذات الأصول الاجتماعية النابعة أساسا من البرجوازية الصغيرة والمتمركزة في المدن أساسا وتشمل جمعية العلماء لمسلمين برئاسة عبد الحميد بن باديس ثم الشيخ البشير الإبراهيمي وثلة من العلماء والأساتذة ورجال الثقافة العربية.

بالإضافة إلى أعضاء من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري برئاسة فرحات عباس هذه الشخصية التي عرفت تحولات عقائدية معتبرة من المطالبة بالاندماج إلى الإصلاح إلى الالتحاق بثورة التحرير، وتحمل مسؤوليات كبرى في قيادة الثورة التحريرية إلى معارضة بعض التيارات داخلها.

غير أن ما يلفت الانتباه هو الدور الهام الذي أدته جمعية العلماء على أكثر من صعيد، فهي من الناحية القانونية جمعية دينية علمية تهذيبية أدبية تتمثل غايتها في نشر الدين الإسلامي على وجهه الصحيح البعيد عن كل بدعة ومحاربة ما يحرمه الدين كالخمر والميسر والآفات الاجتماعية والجهل والبطالة والإسراف وكل شيء ينهى عنه الشرع، لكنها في الواقع تحمل برنامج بناء قاعدة دولة ومجتمع جديد بإعداد الإنسان وبناء المؤسسات التعليمية والخيرية وإنشاء الجمعيات والنوادي، وإصدار الجرائد والمجلات وتكوين الأساتذة وتوظيفهم وإرسال البعثات التعليمية ومناقشة كل الاتجاهات السياسية والفكرية ومحاربة الزوايا الفاسدة والعميلة، وذلك هو غاية كل هياكل ومؤسسات الدولة الحديثة.

إن شعارات "الإسلام ديني، العربية لغتي، والجزائر وطني" غنية عن التعريف برنامج له دلالته السياسية والثقافية والعقائدية بخلفياته الاجتماعية والاقتصادية والفكرية , إن التركيز على هذه الثوابت التي تضمنها بيان أول نوفمبر 1954 هي التي جعلت

أعضاء الجمعية وأساتذة التربية والتعليم التابعة للجمعية وطلبتها ونخبتها المسيرة تلتحق بالثورة وتحتل مواقع إستراتيجية أثناء الثورة وبعد الاستقلال. (8)

إن وقوف أعضاء الجمعية إلى جانب الحركة التي تضم إلى جانب فرحات عباس وقيادة حزب الشعب الجزائري وخيرة نخبة جمعية العلماء المسلمين الذين كان لهم تأثير قوي في الأوساط الريفية والحضرية ذات التكوين العربي والإسلامي في حين إن تأثير فرحات عباس كان في الوسط المديني والبرجوازي الصغير، أما تأثير حزب الشعب فهو عام لدى العمال والفلاحين، وهو ما حقق إجماع وطني لم تشهد له الحركات الوطنية مثيل إلا مع انطلاق ثورة التحرير بقيادة جبهة التحرير الوطني.اتبعت هذه الشريحة من النخبة الوطنية إستراتيجية نضالية متميزة تتمثل أساسا في السعي إلى تغيير الذهنيات وتربية الأجيال لمواجهة الخطط الاستعمارية الرامية لمحاربة الإسلام حيث سخر بعض عملائه من رجال الدين لتأمين السيطرة الأجنبية وبث الروح الخرافية والقدرية .وقيام الاستعمار في آن واحد بتنفيذ خطة لتمسيح الجزائريين على أساس ضرب روح الإسلام كمقوم أساسي موحد للشعب الجزائري ضد الغزو الأجنبي وعلى لغته العربية بجعلها غريبة في عقر دارها، وانتهاج سياسة الإدماج والتجنيس والفرنسة للبلاد والعباد.

دعت هذه النخبة إلى فكرة الإصلاح الديني ومحاربة الشعوذة، التي تزامنت في تبلورها مع ظهور الحركات السياسية الداعية للاستقلال,بما يعني الالتقاء مع مطلب الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية لإدراكهم العميق بعلاقة الدين بالدنيا، إنها تتكامل في الغايات والأهداف دون الدخول في صراعات أو تناقضات مع أي تيار في هذه المرحلة باعتبار أن العدو المشترك له من الإمكانيات والوسائل القمعية والدعائية والسلطة المادية ما يؤهله لمحاربة كل أشكال وصور المقاومة في مهدها في ظل وجود جماعات نخبوية مستلبة ومتشبعة بقيم النظام الاستعماري ومتيقنة بعدم وجود حل آخر إلا بالذوبان في الكيان الفرنسي (الاندماجيين) والذي رد عليه ابن باديس:

"أورام إدماجا له رام المحال من الطلب"

إنه موقف سياسي ضد الاندماجيين وموقف ضد التمسيح وموقف مع العربية والإسلام إنه برنامج سياسي في محتواه، أصيل في مراميه مرن في وسائله يقوي الذات

الاجتماعية بوقايتها من الأمراض المتفشية +قبل أن ينتقل إلى الهجوم على الخصم إنها إستراتيجية محددة الأهداف والوسائل والمراحل تتفاعل مع الواقع من خلال الممارسة اليومية، وفي هذا الإطار تؤكد "Colonna" إن كل الأحزاب والحركات أن كل الأحزاب والحركات استعملت الإسلام فعليا في مرحلة ما من مراحل تطورها لأن "الإصلاحات الإسلامية"(9) تشمل جميع مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية.

وطبقا لإستراتيجية الجمعية فإن الأولوية كانت للتعليم العربي والأوقاف والمساجد والقضاء الإسلامي.

إن تطور برامج التعليم واختيار الأساتذة وتشكيل هيأة يرجع إليها اختيار القضاة وتعطى لها سلطة مراقبة أحكامهم. (10)

إن اللغة هي وعاء الثقافة وأداة اتصال بالثقافة والدين والتاريخ لذا فسياسة الجمعية في إنشاء مدارس التربية والتعليم عبر التراب الوطني وتوظيف معلمين أكفاء شكل أرضية ملائمة لأداء الجمعية لدورها نحو أجيال الماضي والحاضر والمستقبل.

ثالثا: التيار الاستقلالي:

ارتفع مطلب حق الجزائر في الاستقلال السياسي منذ العشرينيات من القرن الماضي إذ تكفلت حركة نجم شمال إفريقيا بمهمة طرح فكرة الاستقلال ليعاد طرحها من جديد لدى حزب الشعب الجزائري فحركة انتصار الحريات الديمقراطية في إطار الشرعية الاستعمارية ثم طرح خيار الكفاح المسلح خارج هذه الشرعية وضدها عبر المنظمة السرية ثم اللجنة الثورية للوحدة والعمل التي تولدت عنها جبهة التحرير الوطني التي أعلنت عن مبادئها وأهدافها ووسائل انجاز وتجسيد تلك المبادئ في الفاتح من نوفمبر 1954.

لذا كان وضع إستراتيجية جديدة تجمع بين النضال السياسي والكفاح المسلح في آن واحد هو الحل الأمثل لأزمة الحركة الوطنية الجزائرية الاستقلالية .

إن الوصول إلى هذه النتيجة لم يكن أمرا ميسورا ولا سهلا بالنسبة للحركة الاستقلالية في الجزائر حيث تحولت وعود فرنسا بالنظر في المسألة الجزائرية إلى ما بعد انتصار الحلفاء على دول المحور إلى سراب بعد الثامن من شهر ماي 1945 من خلال

عمليات القتل والتشريد والنفي للجزائريين بغية القضاء على فكرة الثورة المسلحة ومطلب الاستقلال وحينها أدرك المناضلون أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة بقوة التنظيم وقوة الإرادة والاستعداد للحرب والشروع في إعداد التنظيم والمال والرجال وكان هذا العمل الثوري آلية حقيقية وعنصر فرزا جوهري بين الوطنيين الحقيقيين الذين يريدون النضال ويعملون ضد الشرعية الاستعمارية وبين المطالبين بالاندماج مع النظام الاستعماري.

رابعا: الخلفية الاجتماعية والثقافية لنخبة التيار الاستقلالي:

إن الخلفية الاجتماعية لهذه النخبة التي تتكون أساسا من عمال جزائريين في المهجر مارسوا الحياة النقابية وعايشوا الممارسات الديمقراطية في الأحزاب السياسية الفرنسية على وجه الخصوص، وخاصة الحركات اليسارية ظهروا في خضم انتصار الثورة الروسية وظهور الحزب الشيوعي الفرنسي والحركات اليسارية، ولكن العنصر الأكثر تأثيرا هو الاضطهاد الاستعماري والقمع البوليسي التمييزي المسلط على الجزائريين كان هو العامل الجوهري في نشأة هذه الحركة السياسية في المهجر بزعامة نجم شمال إفريقيا برئاسة الحاج علي عبد القادر، عضو اللجنة المركزية لحزب الدفاع عن المصالح الأدبية والمادية والاجتماعية لمسلمي شمال إفريقيا برئاسة أحمد جفال وأحمد بن الغول ومصالي الحاج وشارك فيها مناضلون من تونس والمغرب الأقصى ثم أصبح المشروع منظمة جزائرية محضة وتزعمه الحاج مصالي (أحمد بن أحمد مصالي) ليرتبط اسمه بعد ذلك بالحركة الاستقلالية في الجزائر.

تمثل المسألة الوطنية جوهر الصراع والنضال ضد الاستعمار الفرنسي الاستيطاني والهدف هو الاستقلال الكامل للجزائر وجلاء الفرنسيين عنها وفكرة العروبة بالمناداة بالتعليم العربي وإعطاء مستوى اجتماعي اقتصادي لهذا الاستقلال، ذلك هو الإطار العام الذي يتحرك ضمنه هذا التيار بنخبته المناضلة ولهذا وجدت صداها لدى غالبية السكان الجزائريين الذين كانوا من الفلاحين والفلاحين بدون أرض ولدى العمال الذين على قلتهم يشكلون عنصرا فعالا في الحياة المدينية بما لهم من وسائل اتصال وظروف حياة ملائمة للاجتماع والاتصال والحوار ودرجة وعيّ تمكنهم من إدراك أنهم أكبر المتضررين من الفعل الاستعماري التدميري ولذا فإن مطلب الاستقلال يمثل حلا جذريا للمسألة الوطنية

بالنسبة للغالبية العظمى من الجزائريين، ذلك أن إقامة الصراع على أساس طبقي يعني فيما يعنيه قبول النظام الاجتماعي الاقتصادي السياسي القائم كإطار للصراع الاجتماعي وهو ما ترفضه الحركة الاستقلالية من الأساس وتناضل من أجل القضاء عليه باستعادة السيادة الوطنية، فالمطالب الثلاثة الأولى لبرنامج الحركة (الاستقلال الكامل + جلاء الجيش الفرنسي + إنشاء جيش وطني) هو طرح للمسألة الوطنية كبديل للنظام الاستعماري، فهو لا يطرح مسألة فعالية تنظيم السلطة القائمة في المجتمع الجزائري "مجتمع الأهالي" وبين السلطة القائمة في مجتمع المستوطنين ,إذ أن لكل منهما نظامه القانوني وثقافته ومؤسساته وانتماءه الحضاري، فالمشكلة كل المشكلة تكمن في سيطرة وهيمنة هذا "المجتمع الدخيل" على المجتمع الأصلي "الأهالي" إنه يطرح مسألة تصفية الاستعمار على مستويات سياسية متمثلة في مطلب الاستقلال بمكوناته ومستلزماته من جهة وعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي بإعطاء مضمونا لبرنامجها يستجيب للمتطلبات الحقيقية للشعب الجزائري من جهة أخرى، ...حيث أن ثلثي الفلاحين كانوا يشكلون من الناحية الاقتصادية لا طبقة فلاحية مستقلة بل تجمعها من أنصاف البروليتاريين وبعض الإحصائيات تتحدث عن مليون عاطل ريفي عن العمل سنة 1954.(11)

إن هذا البرنامج السياسي للنخبة سنصادفه عند حزب الشعب وبعض عناصره لدى حزب أحباب البيان ثم لدى جبهة التحرير الوطني والتي ستتجسد بعض مطالبه في الميدان.

وتكون الجبهة هي آلية الاستقطاب ليس للنخبة الوطنية ذات التوجه الاستقلالي فحسب ولكن لأغلب المناضلين في الحركات السياسية الأخرى لاحقا.

إن تغيير التنظيم بحل حركة نجم شمال إفريقيا سنة 1929 لتبعث من جديد تحت اسم حزب الشعب الجزائري سنة 1937 لتحله السلطات الاستعمارية مرة أخرى سنة 1939، فكان تأسيس الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية والتحالف مع فرحات عباس ضمن حركة أحباب البيان الجزائري إلى جانب جمعية العلماء المسلمين لخوض النضال المتعدد الأوجه مع باقي الأحزاب والجمعيات لمحاولة تجسيد إجماع وطني

جزائري قادر على قيادة النضال السياسي لإفتكاك حقوقه المهضومة في إطار الشرعية الدولية. (12)

إن التأكيد على دراسة النخبة في مجملها وليس التركيز على شخص الزعيم له ما يبرره في التاريخ والواقع والمنطق، ذلك أن التاريخ يبين لنا الصراعات التي قد تحدث داخل النخب في السلطة أو في المعارضة حتى داخل النخبة الثورية ذاتها في الجماعات الرسمية وغير الرسمية، إن الصراع الذي حدث بشأن خيار الكفاح المسلح أو النضال في إطار الشرعية الاستعمارية بكل متطلباته وآثارها تنكشف دفعة واحدة عند الاختلاف بين أعضاء هذه الحركة بشأن تبني مبدأ الكفاح المسلح في: 16/15 فيفري1947 سنة بعد تأسيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية وتأسيس المنظمة الخاصة (O.S) وتعيين محمد بلوزداد مسئولا لها وبعد وفاته يتولى آيت أحمد المسؤولية ليقال بعدها بسبب الأزمة البربرية من رئاسة المنظمة لصالح أحمد بن بلة.

"إن ما يسمى بالأزمة البربرية في جوهره صراع جهوي على السلطة السياسية مقنع بمظهر الصراع الثقافي بين العرب والبربر, في حين أن المسألة البربرية لا تهم جهة معينة بقدر ما تهم جميع جهات الوطن ولذا لا يحق لأية جهة أن تستعملها كغطاء للوصول إلى مراكز الحكم". (13)

والأكيد أن الثورة الجزائرية شملت كل التراب الوطني بعد ذلك، وأن الاستعمار لم يكن ليفرق بين مجاهد في بلاد القبائل أو من الهقار أو من سوق أهراس أو تلمسان مادام يحمل السلاح ضد المستعمر، وأن المسألة على ما يبدو آنذاك كانت تتعلق بالفاعلية بين الرجلين آيت أحمد حسين وبن بلة اللذين لا يشك أحد في وطنيتهما.

إن هذا التنظيم السري(المنظمة الخاصة) ساهم في إعداد المناضلين للكفاح المسلح وأدى ما عليه في انتظار يوم الحسم وعندما تم اكتشاف أمر المنظمة السرية وتم إلقاء القبض على الكثير من أعضائها بدأت عملية جديدة للخروج من النفق المسدود .

ذلك أن أعضاء المنظمة السرية الذي لم يتم القبض عليهم أحسوا بالخلاف القائم بين المركزيين وبين أعضاء المكتب السياسي بقيادة مصالي الحاج وبين أعضاء المكتب السياسي أنفسهم كما يقول رابح بيطاط "مجموعة تنادي بمصالي وأخرى تنادي باللجنة

المركزية اخترنا أن نبقى على الحياد... وعندما بدأ الخلاف يشتد في صفوف الحزب عادت فكرة إرسالنا إلى فرنسا: بوضياف، ديدوش، وحباشي ومشاطي"، وكنا –رابح بطاط وبن مهيدي – على أهبة الاستعداد للإلتحاق بفرنسا لكن بوضياف وديدوش قد عادا من فرنسا وتشكلت مجموعتنا من جديد وبدأنا نتصل بالإخوان الذين كانوا في المنظمة السرية... وشرعنا نفكر جديا في تجاوز هذه الخلافات بالانتقال إلى مرحلة الكفاح المسلح الذي يتوحد الناس حولها" هكذا نصل إلى اللجنة الثورية للوحدة والعمل التي تكونت في مارس 1954 وتم تعيين المناطق وكان آخر اجتماع لهم في: 1954/10/23 ببوانت بسكاد (الرايس حميدو) بمنزل السيد بوقشوره مراد وبعد أن حررنا التقرير النهائي واخترنا النهار والساعة خرجنا من المنزل وتوجهنا إلى حيث أخذنا صورة تذكارية... "(15) (16).

فقد كانت عملية الخروج عن شرعية النظام الاستعماري واختيار الكفاح المسلح الذي تكفل به جيش التحرير الوطني وسيلة فرز بين الوطنيين الحقيقيين وغيرهم على أساس الانخراط في صفوف جيش التحرير الوطني والعمل في هياكل جبهة التحرير الوطني، وبين الذين بقوا خارج حلبة الصراع إذ أصبحت جبهة التحرير الإطار المرجعي الذي انصهرت فيها كل الطاقات الوطنية لإدارة الصراع السياسي العسكري فأقامت الجبهة هيآتها ومؤسساتها وتنظيماتها داخل التراب الوطني وخارجه و استطاعت من خلال جناحها العسكري أن تقود المعركة المسلحة ،هذه المعركة التي فرضت أنماطا من التنظيم والانضباط والاعتماد على الذات ما ساعد على صهر أدوات نضالية لمواجهة أخطار الحياة اليومية أمام ظروف كفاح شاقة وقوى تدميرية لا نظير لها في التاريخ المعاصر مما استدعى من الكل ومن كل واحد مهما كان موقعه في الثورة أن يتكيف مع طبيعتها وأن ذلك أدى إلى تحول وتعميق التحولات السياسية والاجتماعية والذهنية ساعدت في مجملها على تقويض هياكل الاستعمار و تنظيم الشعب الجزائري وإقامة هياكل للدولة الجزائرية تكفلت أثناء الثورة والكفاح بحل مسائل كثيرة كالأمن والصحة والتعليم أو الدفاع عن سكان المناطق المحرمة في الأرياف وتنظيم الدفاع الذاتي في الأحياء الآهلة في المدن الكبرى.

إن ظهور جبهة التحرير الوطني في الفاتح من نوفمبر 1954 أصبحت الإطار المرجعي الوحيد لإدارة الصراع السياسي والعسكري ضد الاستعمار الفرنسي وبذلك أصبحت في آن واحد آلية الانتقاء لا بالنسبة للحركة الاستقلالية وحدها بل بالنسبة لكافة التنظيمات السياسية والاجتماعية الجزائرية.

إن نواة النخبة الحاكمة في الجزائر ما بعد الاستقلال قد تشكلت أثناء معركة التحرير وبالذات حول هيأة أركان جيش التحرير الوطني، وليس حول أعضاء الحكومة المؤقتة، ذلك أن قيادة الجيش بحكم طبيعة تنظيم الجيش الثوري هي الهيأة الأكثر تنظيما وانضباطا، لمواجهة ظروف الكفاح المسلح ضد عدو جند قوة دمار لا نظير لها في التاريخ المعاصر مما استدعي من القيادة انتهاج أساليب عصرية لمواجهة الأخطار، ساعدت على تكوين تنظيمات أدت إلى تحولات سياسية واجتماعية وذهنية قوضت هياكل الاستعمار قبل أن تغادر جيوشه أرض الوطن، وهكذا فإن هذا الإنجاز مكن من تهيئة شروط جديدة فتحت لتحولات عميقة وشحذت وسائل عمل تصلح لأن تحقق النصر في معركة التنمية المستقبلة بعد افتكاكها واستعادتها لرموز للسيادة الوطنية، مما يعني أن للثورة الجزائرية مضمونا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا مرتبطا بمفهوم الاستقلال السياسي ذاته كما أن استرجاع القيم الثقافية للشعب الجزائري العربي الإسلامي وتقاليده الأصيلة وتوجهه الوطني واستعادة الأرض وتحقيق العدالة الاجتماعية من صميم برنامج الثورة الجزائرية.

لقد أدارت نواة هذه السلطة دفة الصراع المتعدد الواجهات لاستقطاب باقي القوى المتفاعلة في مجتمع جزائر 1962 ثم طورت آليات عملها للبقاء في السلطة وتكيفت مع مختلف الظروف.

لفهم ميكانيزمات التطورات التي عرفها بناء النخبة السياسية العسكرية، وكيفيات تفاعلها مع باقي فروع النخب القائمة أو التي تشكلت بصفة موسعة في إطار عملية التنمية.لابد من الرجوع إلى تحليل بنيات التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية والأجهزة والمؤسسات الموروثة عن العهد الاستعماري و إلى مواثيق الثورة واتفاقيات إيفيان، التي

تشكل في مجموعها أرضية لاستقطاب فروع النخب الإدارية والاقتصادية والثقافية بتياراتها وتوجهاتها ضمن هياكل السلطة في عهد الأحادية والتعددية الحزبية.

فالنخبة الحاكمة في الجزائر لها تأثير كبير على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المنتهجة في مختلف مراحل تطور المجتمع الجزائري فيما تفعله وما لا تفعله هذه النخب.

وتجربتها فيما عرفته من تحولات وإصلاحات سياسية واقتصادية وثقافية غنية بالدروس كتجربة متميزة في العالم الثالث لثورة فريدة من نوعها في القرن العشرين بكل أبعادها التاريخية والإنسانية والقيمية والفكرية لبناء دولة عصرية التوجه أصيلة المبادئ إنسانية الأهداف تتسع آفاقها لكل الاتجاهات والتوجهات السياسية دونما إقصاء أو تهميش.

المراجع:

1 .بن يوسف بن خدة –اتفاقيات إيفيان–تعريب لحسن زغدار وآخرون.ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص 116.

2.محمد العربي الزبيري– تاريخ الجزائر المعاصر. مطبعة اتحاد الكتاب دمشق 1999 ص33.

3.KAID AHMED: les contradictions des classes et les contradictions au sein des masses.ENAP.Alger1970 p.90.

4.بن يوسف بن خدة: مصدر سابق ص 116–117.

5.قايد أحمد : مصدر سابق.

6.عمار طالبي– عبد الحميد بن باديس–حياته وآثاره– دار الثقافة العربية للتأليف والطباعة والنشر1968.ص28.

7.عمار طالبي: مصدر سابق ص 52–53.

7.صالح فيلالي–إيديولوجية الحركة الوطنية الجزائرية–مركز دراسات الوحدة العربية حول الأزمة الجزائرية.بيروت 1996ص ص 3–30.17.

8.محمد العربي الزبيري: مصدر سابق ص .25

9.شارل روبير أجيرون–تاريخ الجزائر المعاصرة–ترجمة عيسى عصفور– مطبعة عويدات بيروت لبنان 1982– ص 137–138.

10.عمار طالبي: مصدر سابق ص53.

11. عبد اللطيف بن آشنهو–تكون التخلف في الجزائر–ترجمة نخبة من الأساتذة–الشركة الوطنية للنشر والتوزيع1979–ص 349.

12.محمد العربي الزبيري مرجع سابق ص 40–42.

13.المنظمة الوطنية للمجاهدين–الطريق إلى نوفمبر(المقاومة الوطنية والحركات السياسية حتى ليلة أول نوفمبر 1954)المجلد الأول.الجزء الثالث–ديوان المطبوعات الجامعية بدون تاريخ ص 10–15.(الباحث حضر أعمال الملتقيات الخاصة لتسجيل أحداث ووقائع الثورة المنظمة تحت إشراف الأمانة الدائمة لجبهة التحرير الوطني و المنظمة الوطنية للمجاهدين1982).

14.المنظمة الوطنية للجاهدين:تدخل رابح : ص 9–10.

15.المنظمة الوطنية للمجاهدين:مصدر سابق تدخل رابح بيطاط: ص 17.

16.محمد العربي الزبيري: مصدر سابق ص 99.